الفصل الرابع

قطفات من الثمار الرائعة

قطفات من الثمار الرائعة

يعـد أن حاولنـا سير أغـوار ماهيـة التربية التي ربي رسـول اللـه، صلي الله عليـه وسلم، صحـابته على أسـاسهـا، وعلى هدى منهـا، لعلـه يكون من المفيـد أن نلقي الضـوء على بعض مخرجاتها، كما يقـول التربـويون، أي على بعـض نتائجهـا، والتي تتمثل في خريجين نابهين ساروا على هـدى معلمهم الأعظم والأسمى، صلى الله عليه وسلم، وانتقل أثر التعليم وأثر التدريب والتربية منه، عليه أفضل الصلاة والسلام، إلى شخصياتهم، بعد أن تمثلوا أقـواله وأفعاله وتقريراته، وبعـد أن هضموها فصارت جزءً من شخصيـاتهم، لا ينفصلون عنها، ولا تنفصل عنهم، وسوف تكـون قطفاتنا من هذا البستـان الثري الـوافر، المحمل بـالثمار اليانعـة، قليلة ومختصرة بحيث تشير فقط - من بعيد - إلى الآثار العظيمة التي تـركها معلم البشرية الأسمى في نفوسهم، بحيث سمت بهم وبأرواحهم، فغيرت مكـانتهم على الأرض، وغيروا هم من حولهم وحول جزيرتهم العربية، وقبل أن نفعل ذلـك لعلنا نقرأ كلمات معبرة صاغها الكاتب الإسـلامي خالـد محمـد خالـد، رحمه اللـه، في حق المعلم الأسمى، صلى الله عليـه وسلم، قال:

أي معلم كان.. وأي إنسان.. ؟؟

هذا المترع عظمة، وأمانة، وسموا.. ؟

ألا إن الذين بهرتهم عظمته لمعذورون..!!

وإن الذي افتدوه بأرواحهم لهم الرابحون..!!

ابن عبدالله محمد.. رسول الله إلى الناس في قيظ الحياة..

أي سر توفر له فجعل منه إنساناً يشرف بني الإنسان..؟؟

وبأيـة يدٍ طـولى، بسطها شطر السماء، فـإذا كل أبواب رحمتهـا ونعمتها وهـداها مفتوحة على الرحاب. . ؟!!

أي إيمان، وأي عزم، وأي مضاء. . ؟!!

أي صدق، وأي طهر، وأي نقاء. . ؟؟

أي تواضع. . أي حب. . أي وفاء. . ؟؟

أي تقديس للحق. . ؟؟

أي احترام للحياة، وللأحياء. . ؟؟ !!

لقد آتاه الله من أنعمه بالقدر الـذي يجعله أهلاً لحمل رايته، والتحدث باسمه، بل ويجعله أهلاً لأن يكون خاتم رسله. .

ومن ثم كان فضل الله عليه عظيما.

صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم. (١)

وعبارات أبدعها العقـاد. . رحمه الله، . وهو يتحدث عن المعلم الأسمي، صلى الله عليـه وسلم، وأثره في التاريخ، عـن مكانة محمـد في العالم، وأحداثـه الخالدة، لأن العالم كله صفحات تنبئنا بمكان محمد فيه.

«محمـد في نفسه عظيم بـالغ في العظمـة، وفاقـا لكل مقيـاس صحيح يقاس بـه العظيم عند بني الإنسان في عصور الحضارة.

فما مكان هـذه العظمة في التاريخ. . ؟ مـا مكانها في العـالم وأحداثه البـاقية على تعاقب العصور. . ؟

مكانها في التاريخ أن التـاريخ كله، بعد محمد، متصل به، مـرهون بعمله، وإن حادثـا واحداً من أحـداثه البـاقية لم يكن ليقـع في الدنيا كما وقـع لولا ظهـور محمد، وظهور عمله.

---

(١) خالد محمد خالد، مرجع سابق، ص ١٢

فلا فتوح الشرق والغرب، ولا حركات أوروبا في العصور الوسطى، ولا الحروب الصليبية، ولا نهضة العلوم بعد تلك الحروب، ولا كشف القارة الأمريكية، ولا مساجلة الصراع بين الأوروبيين والآسيويين والإفريقيين، ولا الثورة الفرنسية وماتلاها من ثورات، ولا الحرب العظمى التي شهدناها قبل بضع وعشرين سنة، ولا الحرب الحاضرة التي نشهدها هذه الأيام، ولا حادثة قومية أوعالمية مما يتخلل ذلك جميعه كانت واقعة في الدنيا كما وقعت، لولا ذلك اليتيم الذي ولد في شبه الجزيرة العربية، بعد خمسمائة وإحدى وسبعين سنة من مولد المسيح.

كان التاريخ شيئاً.. فأصبح شيئاً آخر، توسط بينهما وليد مستهل في مهده بتلك الصيحات التي سمعت في المهود عداد من هبط من الأرحام إلى هذه الغبراء... ما أضعفها يومئذ صيحات في الهواء.. ما أقواها بعد ذلك أثراً في دوافع التاريخ.. ما أضخم المعجزة.. وما أولانا أن نؤمن بها كلما مضت على ذلك المولد أجيال وأجيال، وما أغنانا أن نبحث عنها قبل ذلك بسنين حيثما بحث عنها المنجمون والعرافون..

على أننا نستعظم الأحداث العظام في تاريخ بني الإنسان بمقدار ما فيه من فتوح الروح، لا بمقدار ما فيه من فتوح البلدان.

وجائز أن يقع في الدنيا طوفان أو زلزال قيتصل به من أحداث الزحوف والفتوح مايبدل في التاريخ، ويبتعث دوافع الشعوب.

أما غير الجائز فهو أن تتفتح للإنسان آفاق جديدة من عالم الضمير بغير عظمة روحية يوحيها الإيمان، وبغير رسالة باطنية تسبق هذه الظواهر التي تهول الأنظار.

ولقد فتح الإسلام ما فتح من بلدان لأنه فتح في كل قلب من قلوب أتباعه عالما مغلقا تحيط به الظلمات، فلم يزد الأرض بما استولى عليه من أقطارها فإن الأرض لا

تزيد بغلبة سيد على سيد، أو بـامتداد التخوم وراء التخوم، ولكن زاد الإنسان أطيب زيادة يدركها في هذه الحياة فارتفع به مرتبة فوق طباء الحيوان السائم، ودنا به مرتبة إلى الله[1] (لعل القـاري يتذكـر أننـا جعلنا عنـوانه هـذا الفصل متعلقـا بتغيير مكانـه الإنسان).

والآن إلى الثمار. . بعض الثمار. . .

أولاً:

من كنت جلدت له ظهراً، فهذا ظهري فليقتد منه:

يقـولها المعلم الأسمي، صلى اللـه عليه وسلم، ويكمل «ومن كنـت أخذت منـه مـالا، فهذا مـالي فليأخذ منـه». . يقـولها صلى الله عليـه وسلم، وقد تثبتت دعـائم الإسلام، وتوطـدت أركانه وكثر الفيئ ، وزادت الغنـائم، بعد انتصار المسلمين على أعدائهم في شبه الجزيرة العربية، وكان بإمكانه، صلى الله عليه وسلم، أن يأخذ من كل ذلك ما شاء، ولكنه يضع لنفسه ولأهل بيته مبـدأ لا يحيدون عنه، هو (أن يكونوا أول من يجوع إذا جاع الناس، وآخر من يشبع إذا شبع الناس). . !!

والمعلم الأسمى، صلى الله عليه وسلم، يطبق ذلك في بيـوته، وعلى نسائه اللاتي شكـون - على فخـرهـن بـالانتماء إليـه - أنهن لايجدن نصيبهن من الـزينـة والنفقـة واجتمعت كلمتهن على الشكـوى واشتـددن فيهـا حتى وجم النبي وهم بتسريحهن، أو تخييرهن بين الصبر على معيشتهن أو التسريح. . نسـاء محمـد، صلى اللـه عليـه وسلم، يشتكين قلـة النفقـة، ولـوشـاء لأغـدق عليهن النعمـة وأغـرقهن في الحريـر والذهب وأطايب اللذات»[2] وتذهب إليه ابنته فاطمـة رضي الله عنها، تطلب منه

---

(١) عبـاس محمـود العقـاد: عبقـريـة محمـد، المكتبـة العصريـة، بيروت، ط٢، ١٩٦٩م، ص ص ٢٢٥-٢٢٦ .

(٢) المرجع السابق، ص ص ٥٨-٥٩ .

أن يعينها بخادم، مما يعطي الناس، خاصة وقد كان زوجها على بن أبي طالب فقيرا، فلا يستجيب لها، وبأمرها هي وعلى أن يكثرا من ذكر الله، وأن يسبحا بحمده طويلاً.

وانتقل أثر التربية إلى الصحابه العظام فوجدنا عمر ، رضي الله عنه، يعيش عيشة الكفاف، عيشة خشنة لا تتمشى على الإطلاق مع الأوضاع الاقتصادية الجديدة التي بدأت تسود دولة الإسلام، بعد أن كثرت الفتوحات وأفاء الله على عباده المؤمنين من خيراته الشيء الكثير، ولكن عمر الذي تربى على يدي محمد، صلى الله عليه وسلم، لم يتغير، تغيرت الدنيا كثيرا . . كثيرا جدا، وخضعت بلاد الفرس والروم للمسلمين، وبقي عمر كما هو صامد كالجبل أمام مغريات الحكم وعظمة السلطان، ظل يحافظ على أموال المسلمين، ويحاسب الولاة حسابا عسيرا على كل صغيرة وكبيرة، حتى قال عنه داهية من دهاة المسلمين، هو عمرو بن العاص «والله مارأيت عمر مستخليا بأحد إلا رحمته كائنا من كان ذلك الرجل »[1].

وكتب، رضى الله عنه، إلى عبيدة بأمره أن يقاسم خالد ماله نصفين فقاسمه جميع ماله حتى بقيت نعلاه، فقال أبوعبيدة: إن هذا لايصلح إلا بهذا . . فأبي خالد أن يخالف أمر عمر، وأعطاه إحداهما وأخذ الأخرى . . !![2]

ولم يكن يبيح من مال المسلمين أجرا لعمله إلا مايقيم أوده وأود أهله عن الحاجة إليه، فإن رزقه الله مايغنيه عن بيت المال كف يده عنه . . « ألا وإني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة ولي اليتيم: إن استغنيت استعففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف» . . ولما سئل عما يحل للخليفة من مال الله قال «لايحل لعمر من مال الله

---

(١) عباس محمود العقاد: عبقرية عمر، مرجع سابق، ص ٤٩،

(٢) المرجع السابق، ص٥٦ .

إلا حلتين: حلة للشتاء وحلة للصيف، وما أحج به وأعتمر، وقوتي وقوت أهلي كرجل من قريش، ليس بأغناهم ولا بأفقرهم، ثم أنا بعد ذلك رجل من المسلمين»[1].

وكثيرا ماتوسل إليه خاصته أن يشفق على نفسه، وأقنعوه بما علموا أنه أدنى إلى إقناعه، وهو أن يتوسع في العيش ليكون ذلك أقوى له على الحق، فكان يقول لهم: «قد علمت نصحكم، ولكني تركت صاحبي على جادة، فإن تركت جادتهما لم أدركهما في المنزل»، وكلما نصح له ذووه، ومنهم بنته حفصة أن يستكثر من الطعام الطيب والنعمة السائغة سألها: كم كان نصيب النبي من هذا أو ذاك، وأنت تعرفين نصيبه.. ؟ فيكون السؤال هو الجواب.[2]

وتختم الحديث عن هذه القمة الرائعة من قمم الإسلام، والتي ارتفع قدرها، وعظمت مكانتها بالإسلام، فنري سويا كيف ختمت حياته، رضي الله عنه، وهو مدين، تماما كما حدث مع معلمه الأسمى، صلى الله عليه وسلم، الذي مات ودرعه مرهونة عند يهودي.. !!

وكان عمر يقترض فيسعر، فيتأخر قضاؤه، فيأتيه صاحب بيت المال ويشتد في تقاضيه، فيحتال له عمر ويؤجله إلى أن يستحق عطاءه مع عطاء المسلمين، فيسد به دينه.. !!

ومع هذا كان يشفق أن يقترض من بيت المال إلا أن يتعذر عليه الاقتراض من بعض صحبه، فأرسل مرة إلى عبدالرحمن بن عوف في طلب أربعة آلاف درهم يجهز بها عيرا إلى الشام، فعاد الرسول يقول له: خذها من بيت المال ثم ردها.. !!

---

(١) المرجع السابق، ص١١٢.

(٢) المرجع السابق، ص ١٣٥.

وشق ذلك عليه فلقي صاحبه، وعلم منه صدق مابلغه فقال: أفئن مت قبل أن تجيء قلتم أخذها أمير المؤمنين دعوها له.. وأوخذ يوم القيامة..؟ «لا.. ولكني أردت أن آخذها من رجل حريص شحيح مثلك، فإن مت أخذها من ميراثي..!!

وحدث ما توقعه من مجيء الأجل قبل سداد الدين أو ديونه جميعا، فلم يشغله الموت، ولا شغلته كبار الخطوب التي يضطلع بتصريفها قبل موته أن يسأل عن ديونه، ويوصي بسدادها من ماله ومال أهله.[1]

ومات عمر، رضي الله عنه، وقد سار على طريق معلمه الأسمي، صلى الله عليه وسلم، رغم ما أحاطه من ثراء وغنى، لم تعرف له الدولة الإسلامية نظيراً قبل عهده، ولكن كل ذلك لم يفعل فيه فعله، بقدر ما فعلت التربية الإسلامية العظيمة في شخصه، رضي الله عنه.

ثانياً:

أتشفع في حد من حدود الله..؟؟!!

إننا جميعا نعلم موقف الرسول صلي الله عليه وسلم، من تطبيق العدالة على الجميع، وبلا استثناء، عظم الناس في ذلك، أو تواضعت مكاناتهم الاجتماعية، وقصة السارقة المخزومية معروفة، تلك التي هال بعض الصحابة أن يقام عليها الحد، ولكنهم ما جرؤوا أن يكلموا النبي، صلى الله عليه وسلم، مباشرة، فلجأوا إلى أسامة بن زيد، رضي الله عنه، وهو الأثير عنده، فتكلم في أمرها مع المصطفى الأمين، صلى الله عليه وسلم، وجاء الدرس التربوي العظيم الذي يعلو فوق كل شفاعة، والذي يرسى المبدأ والقانون، فوق الجميع، وخرجت الكلمات من فم

---

(١) المرجع السابق، ص ص ٢٣٢-٢٣٣.

أشرف الخلق أجمعين لتحفر دروساً لا تمحى في نفوس الصحابة وأرواحهم وشخصياتهم، وليتمثلوها لتظهر بعد ذلك في حياتهم.

«أتشفع في حد من حدود الله».. ؟!!

يقولها المصطفى، صلى الله عليه وسلم، مغضبا، لأسامة بن زيد، رضى الله عنه، ويكررها عليه الصلاة والسلام، ليؤكد المعني في نفس الصحابي الشاب وذلك حتى يبين له خطورة ما يطالب به، فتلك حدود الله التي أمرهم سبحانه وتعالى ألا يعتدوها، وقد قرأوا ذلك مرات ومرات، وجاء الموقف الذي يتطلب التطبيق.. ومن أولي بذلك من الرسول العظيم، والمعلم الأسمى، ثم يلقى، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، الدرس في إطاره التاريخي، حتى يتمثل المسلمون العبرة، إذا سمحوا الأنفسهم واقتربوا من تلك الحدود:

«إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد». ثم يصل الدرس النبوي قمته العملية السامقة والمثلى، حين يضربه اسمى المعلمين من ذاته، من أهل بيته، حتى لا يكون هناك تردد أو محاباة:

«والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت.. لقطع محمد يدها».. !!!

ويصدع المؤمنون بما أمروا به، فبعد ذلك ليس هناك إلا اليقين، وإلا الطاعة، ويقام الحد على السارقه (الشريفة)، ويبقى الدرس في النفوس يفعل فعله، ويؤتي أكله، فهو من معلم صادق مصدق.. إلى متعلمين مؤمنين صادقين مصدقين.[1]

ولننظر في أمر وقع للصحابي الجليل.. أبي بكر، رضى الله عنه، وهذا الأمر يبين مدى انتقال أثر التربية من المعلم الأسمى، صلى الله عليه وسلم، إلى تلاميذه

---

(١) محمد عبد العليم مرسي: مرجع سابق ص ص ٢٧-٢٨.

الكرام . . صحابته العظام، رضى الله عنهم أجمعين. وهذا الأمر وقع للرجل الذي أنزل الله فيه قرآناً «ثاني اثنين إذ هما في الغار» (التوبة/ ٤٠).

كان ذلك يوم بدر وكان ابنه عبدالرحمن من أشجع الشجعان بين فرسان العرب، ومن أنفذ الرماة سهما في قريش، فتقدم الصفوف يدعو إلى المبارزة، وقام أبوه يجيب دعوته، لولا أن استبقاه النبي عليه الصلاة والسلام، وهو يقول: متعني بنفسك.

ولما أسلم عبدالرحمن قال لأبيه ذات يوم: لقد أهدفت لي يوم بدر فضفت عنك - أي عدلت عنك- ولم أقتلك، فقال له أبوه: ولكنك لو أهدفت لي لم أضف عنك.[1]

هذه هي إذن «التربية الإسلامية» في أسمى معانيها التطبيقية تنتقل من أسمى المعلمين، صلى الله عليه وسلم، إلى تلاميذه العظام، والخيط المتين شديد الوضوح بين موقف النبي، صلى الله عليه وسلم، وموقف أبي بكر، رضى الله عنه. . لا مهادنة في الحق، ولا اعتداء على حدود الله، ولا اعتبار لكرامة قريب مهما تكن درجة قرابته، إذا كان ذلك على حساب الدين والمبدأ، وارتفعت مكانة الإنسان في جزيرة العرب درجة كبرى بهذا الوعي، وهذا الإيمان.

ثالثاً:

سلمان منا.. آل البيت.. !!

إن من أعظم عظمات ديننا الإسلامي أنه يساوي بين البشر جميعا، فهم كأسنان المشط، كما جاء في الأثر، لا فرق بين عربي أو أعجمي، بين أبيض أو أصفر، إلا بأمر واحد أخبرنا به معلمنا الأسمي سيد الخلق أجمعين، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وهذا الأمر هو. . التقوى.

---

(١) عباس محمود العقاد: عبقرية الصديق، دار المعارف، القاهرة، ط١٤، ١٩٨٢م، ص٤٢.

كذلك أخبرنا أن المولى عز وجل لاينظر إلى صورنا وأشكالنا، ولكن ينظر إلى قلوبنا وأعمالنا، هذا البعد الهام والخطير، بعد المساواة بين البشر جاء به الإسلام، منذ أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان، وهو بعُد لم تعرفه البشرية، أو الحضارات السابقة على الإسلام، ولا حتى الحضارات اللاحقة . . ، لم تعرفه بمعناه الكامل والعميق الذي طبق به في الإسلام.

وعلى العكس من ذلك عرفنا كيف كان نظام الطبقات هو السائد في كثير من الحضارات القديمة، كالحضارة الهندية واليابانية، وحضارة اليونان والرومان وقرأنا عن ثورات للعبيد في تلك الحضارات القديمة، وثورات العبيد في روما كتب عنها الكثير، وحتى في العصر الحديث، عصر حقوق الإنسان لازالت هناك ممارسات مؤلمة للملونين من البشر، حتى في المجتمعات المتقدمة ماديا، ويكفى أن نجيل البصر في أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية لترى أثر تلك الممارسات، بغض النظر عن القوانين الموضوعة هناك، ولازالت تقع أحداث تبين وتؤكد فشل القوانين البشرية وقصورها.

ولقد جاء سلمان الفارسي من بلاده إلى جزيرة العرب باحثا عن الحقيقة في قصة طويلة معروفة، حيث كان من عبدة النار، ثم انتقل إلى دين النصارى في الشام، وهناك نصحه أحدهم بالبحث عن النبي، صلى الله عليه وسلم، وأعطاه علاماته التي لا تخفى، فهو لا يأكل الصدقة، ويقبل الهدية، وأن بين كتفيه خاتم النبوة، واهتدى سلمان، رضى الله عنه، إلى النبي المصطفى، وأسلم وحسن إسلامه . .

وكان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يطرى فطنته وعلمه كثيرا، كما كان يطري خلقه ودينه، وهو الذي أشار على الرسول، صلى الله عليه وسلم، بحفر الخندق حول المدينة، يوم غزوة الأحزاب، يوم أن زاغت أبصار المسلمين، وبلغت قلوبهم

الحناجر، وقد نفذ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فكرة سلمان، رضي الله عنه، لأنها كانت معقولة جداً، ولأنه يبدو أنها كانت مجربة في بلاد فارس التي جاء منها سلمان.

وبعد أن انزاحت الغمة، ورد الله الكفار بغيظهم لم ينالوا خيرا، وفشلت جموعهم، وقصرت عن تحقيق أهدافها، وانتصر المسلمون، وقفوا أنصاراً ومهاجرين يتجاذبون سلمان الذي وفقه الله لفكرة الخندق، الأنصار يقولون: سلمان منا، ويرد عليهم المهاجرون بنفس المنطق: بل سلمان منا، ويتدخل نبي الأمة، صلى الله عليه وسلم، ليحسم الموقف النبيل والطيب، بعبارة لا تزال ترن في أذن الدنيا، وستظل إلى أن تقوم الساعة:

«سلمان منا آل البيت». . . !!

فأي تكريم، وأي تشريف، أن ينسب واحد من الصحابة العظام إلى بيت النبوة، وأي عظمة أن يشعر الإنسان المسلم أنه، بعمله، وليس بأي شيء آخر، يقربه نبي الأمه منه حتى يجعله من أهله، فيزيل بذلك غربته التي عاشها بعيدا عن أهله وناسه وعشيرته.

وينتقل الاثر العظيم للتربية الإسلامية من معلمها الأسمي، صلى الله عليه وسلم إلى الصحابة جميعاً، فنجدهم يضعون «سلمان» رضى الله عنه، في موضع لم يوضع فيه صحابي من قريش، أو من الأوس، أو من الخزرج، يقول على بن طالب، كرم الله وجهه، في حق الصحابي الجليل سلمان: «ذاك امرؤ منا وإلينا أهل البيت. . من لكم بمثل لقمان الحكيم. . ؟ أوتي العلم الأول، والعلم الآخر، وقرأ الكتاب الأول، والكتاب الآخر، وكان بحرا لاينزف»[1].

(١) خالد محمد خالد، مرجع سابق، ص ٥٣.

لقد قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: لقد أشبع سلمان علما، وذلك حين سمع مقالة سلمان، رضى الله عنه، لأخيه في الإسلام، أبي الدرداء، رضى الله عنه، والذي كان يقوم الليل.. ويصوم النهار، والذي حاول سلمان أن يثنيه عن ذلك فقال له أبو الدرداء، معاتبا: أتمنعني أن أصوم لربي، وأصلى له..؟! فرد عليه سلمان بكلام حكيم:

«إن لعينيك عليك حقا، وإن لأهلك عليك حقا.. فصم وافطر.. وصل.. ونم»، ومن هنا امتدح المصطفى، صلى الله عليه وسلم، علمه وفقهه «لقد أشبع سلمان علماً»..

يقول خالد محمد خالد عن سلمان، رضى الله عنه، لقد بلغ في نفوس أصحاب الرسول، صلى الله عليه وسلم، جميعاً المنزلة الرفيعة، والمكانة الأسمى، ففي خلافة عمر، رضى الله عنه، جاء المدينة زائرا، فصنع «عمر» مالا نعرف أنه صنعه مع أحد غيره أبدا، إذ جمع أصحابه وقال لهم:

هيا بنا نخرج لاستقبال سلمان..!!

وخرج بهم لاستقباله عند مشارف المدينة.[1]

ولعمري.. هذه أمة أخرجها الله، سبحانه وتعالى للناس، وهي خير الأمم، وما كان يمكن أن تكون كذلك إلا بمنهج الله، عز وجل، وإلا بتربية الرسول، صلى الله عليه وسلم، وحقا إنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذوو الفضل، فكلهم خيار من خيار من خيار.. الرسول المعلم، صلى الله عليه وسلم، يرسم الطريق، والصحابة العظام يسيرون عليه، لاينحرفون يمنة ولا يسرة، يعرفون هدفهم.. ويتجهون إليه فيبذلون جهدهم وطاقتهم، ولذا حققوا بالإيمان حضارة

(١) المرجع السابق، ص٥٣.

هي أقرب إلى المعجزات في زمن قياسي . . . وارتفعت مكانة الإنسان . . بالإسلام، في جزيرة العرب، وم يسأل إنسان نفسه . . . هل كان من قريش أو من غطفان . . المهم أنه إنسان . . وأن الله - جلت قدرته - أكرمه بالإسلام .

رابعاً:

طهرني.. يارسول الله:

لم تعرف البشرية دينا خرّج للعالم نماذج بشرية لها ضمائر حية، وشخصيات حساسة، عاشت على الأرض بين الناس بأرواح صافية كما حدث في النماذج التي رباها النبي، صلى الله عليه وسلم، حتى إنه يروي في الأثر أن بعض صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام، عاتبوا أنفسهم، أو لاموها - فيما قالوا - لأنهم كانوا يعيشون معه، وبين يديه، صلى الله عليه وسلم، في حالات روحانية رائعة، ولكنهم حينما يعودون لمنازلهم، ويلتقون زوجاتهم وأبناءهم كانوا يهبطون من تلك الروحانيات إلى عالم البشر الطبيعي، وأنهم كانوا يتمنون لو بقوا علي حالهم التي يكونون عليها عند خير الخلق أجمعين، صلى الله عليه وسلم، فقال لهم ما معناه: لو بقيتم علي حالكم التي تكونون عليها عندى لصافحتكم الملائكة في الطرقات . . ! !

ومن أعظم عظمات الإسلام أنه يربي الإنسان تربية متكاملة، يربيه عقلاً، ويربيه خلقا، ويربيه سلوكا، ويربية ضميرا . . كما يربيه روحا، وهذه هي ميزات التربية الإسلامية التي تتفوق على سائر التربيات الأخرى .

بل وهذه هي ميزة التربية الإسلامية التي تتفوق على سائر تربيات البشر.

إن الناس يمكنهم أن يضعوا من القوانين، ويسنوا من التشريعات مايمكنهم من أن ينظموا حياتهم على هذه الأرض، وهم في الوقت ذاته يمكنهم أن يفرضوا من أنواع العقوبات مايجعل الناس يلتزمون بهذه القوانين والتشريعات، وتكون هناك

مؤسسات لحماية تلك التشريعات والقوانين ولضمان تنفيذها: وسلطات تقوم عليها مثل السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية وغيرها، وتكون هناك محاكم ورجال بوليس. بوليس علني وآخر سري، ورغم ذلك توجد الجريمة وتنتشر على الأرض في كل المجتمعات، وكلما كان الإنسان (المجرم) ذكيا، كلما استطاع خداع القائمين بالأمر، واستطاع إخفاء آثار جريمته، وحتى لو ضبط متلبسا، ولم يستطع خداع رجال البوليس، فإنه بإمكانه أن يحضر من المحامين من يمكنهم، للأسف الشديد، تضليل رجال العدالة، أو القضاة، بما يستطيعون من تفنيد الأدلة، واثبات تناقضها بحيث لايجد القضاة سبيلاً إلا الحكم ببراءة المتهمين، بل إن بعض عتاة المجرمين يحاولون عن طريق وسطاء لهم، هم للأسف من المحامين، يحاولون رشوة رجال القضاء أو يحاولون تهديدهم.. !!

وآفة ذلك كله تكمن في عبارة واحدة هي: غياب الضمير، أو انعدامه، ولقد عالج الإسلام «بالتربية الإسلامية» هذه المشكلة علاجا ناجعا بحيث خرَّج أفرادا ضمائرهم حية حتى إذا اقترف أحدهم خطأ، أو ارتكب جرما، لم يستطع، فيما بينه وبين نفسه، أن يكتمه عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وذهب ليعترف بما ارتكب وهو يعلم هول العقوبة التي تنتظره، وقسوة التنفيذ، ولكن كل ذلك لايهمه في سبيل أن يتطهر أمام خالقه عز وجل، ولنقرأ ما كتبه شهيد الإسلام سيد قطب، رحمه الله، في هذا المجال: «لقد حفظ الواقع التاريخي للإسلام نماذج لتلك اليقظة الدائمة (يقظة الضمير)، ولهذه الحساسية المفرطة (حساسية الشعور)، أكثر من أن نأتي بها هنا، والنماذج القليلة المنوعة تغني عن الكثير.

عن بريدة قال: «جاء ماعز بن مالك إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: يارسول الله طهرني، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم، ويحك.. ! ارجع فاستغفر

الله، وتب إليه، قال فرجع غير بعيد، ثم جاء فقال: يارسول الله طهرني، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم، مثل ذلك حتى إذا كانت الرابعة قال رسول الله: مما أطهرك.. ؟ قال من الزنا، فسأل رسول الله: أبه جنون.. ؟ فأخبر أنه ليس به جنون، فقال: أشرب خمراً.. ؟ فقام رجل فاستنكهه فلم يجد منه ريح خمر، فقال: أزنيت.. ؟ قال نعم.!! فأمر به فرجم، فلبثوا يومين أو ثلاثة، ثم جاء رسول الله، صلى الله عليه وسلم فقال: استغفروا لماعز بن مالك، لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم.

ثم جاءته امرأة من غامد من الأزد، فقالت: يارسول الله طهرني، فقال ويحك.. ! ارجعي فاستغفري الله وتوبي إليه، فقالت تريد أن تردني كما رددت ماعز ابن مالك.. ! أنا حبلى من الزنا.. ! فقال: أنت ؟ قالت نعم، قال لها: حتى تضعي مافي بطنك، قال فكفلها رجل من الأنصار حتى وضعت، فأتى النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: قد وضعت الغامدية، فقال: إذن لا نرجمها وندع ولدها صغيرا ليس له من ترضعه. فقام رجل من الأنصار فقال إليّ رضاعه يارسول الله. قال فرجمها.

ويروي أنه قال لها: اذهبي حتى تلدي، فلما ولدت قال: اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه، فلما فطمته أتته بالصبي في يده كسرة خبز، فقالت: هذا يانبي الله قد فطمته، وقد أكل الطعام، فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها، وأمر الناس فرجموها، فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها، فتنضح الدم على وجه خالد، فسبها، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: مهلا ياخالد، فو الذي نفسي بيده لقد تابت توبة لوتابها صاحب مكس لغفر له، ثم أمربها فصلى عليها ودفنت»[1].

(١) سيد قطب: العدالة الاجتماعية في الإسلام، دار الشروق، بيروت-القاهرة، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، ص ص١٣٠-١٣١.

ويعقب الشهيد سيد قطب قائلاً :

فهـذا ماعـز بن مـالك وهذه صـاحبتـه ، ولم يكن أحدهما أو كـلاهما ليجهل العقاب الأليم الـذي يناله ، والمصير الشنيـع الذي يحل به ، ولم يكن أحـد قد رآهما لتثبت عليهما الجريمـة ، ولكنهما يلحان على رسـول اللـه ، صلى الله عليـه وسلم ، وكلما شـاءت رحمته ورحمة الإسـلام أن لايمضي في تتبع الاعتراف أصرا وألحا ، وأغلقـا على نفسيهما الأبواب والمنافـذ ، بل زادت المرأة أن تجبه محمدا رسول الله بأنـه يريد أن يردها كما رد ماعز . . !!

لم هـذا كله؟ . . في قـوله وقـولها : «طهرني يـارسول اللـه» مايشير إلى البـاعث القـوي الذي يغلب في نفسيهما على رغبـة الحيـاة ، إنها يقظـة الضمير ، وحساسيـة الشعور ، إنها الرغبة في التطهر من الإثم الذي لم يطلع عليه أحد إلا الله ، إنه الحياء أن يلقيا الله غدا لم يطهرا من ذنب ارتكباه .

ذلك هـو الإسـلام في حسـاسيته المرهفـة تبـدو في ضمير الجاني ، وفي رحمتـه العميقة تبـدو في رد النبي ، صلى الله عليـه وسلم ، لهما ، كـذلك يبدو في حـزمه في تنفيـذ العقوبـة عند ثبوت التهمة ، لا يقفـه نبل الاعتراف ، ولا عظم التوبـة ، لأن الجاني والشارع يلتقيان هنا عند الرغبة في قيام هذا الدين على أساسه الركين .[1]

ولايبقى إلا أن نشيد بالمكـانة العظمى ، بل القمة السامقـة ، التي وصل إليها الإنسان بالإسلام في شبـه جزيرة العرب . والإنسان هنا ، كـان رجلا أو كان امرأة ، وضح بما لايـدع مجالا للشك ، أنـه ارتقـى في قضيـة «الضمير» هـذه إلى قمـة ليست بعدهـا قمة ، حين ضحى بحياتـه التي ليس هناك أغلى منها وأعـز في حياة البشر ، إلا عنـد هـؤلاء الصحـابة الكـرام الـذين كـان الضمير والمبـدأ عنـدهم أهم ، وأهم بكثير . ولغرض واحد هو أن يرضى عنهم الخالق عز وجل .

(١) المرجع السابق .

خامساً :

وأعطاه فاساً .. ليحتطب :

يعتبر العمل من أهم القيم في ديننا الإسلامي العظيم ، وليس العمل فحسب ، وإنما «إتقان العمل» ، بناء على حديث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه» . ولقد ربى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، المسلمين على أن يكونوا مجتمعا عاملاً من الدرجة الأولى ، وذلك منذ أول لحظة وضعوا فيها أقدامهم في المدينة المنورة ، حين عملوا مجتهدين في إقامة المسجد ، أول مؤسسة أقيمت في الإسلام ، ولقد عمل المسلمون في إقامة المسجد وتشييده بهمة وحماس عظيمين ، خاصة وقد كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يعمل معهم ، ضارباً لهم القدوة والمثال والنموذج الذي اقتدوا به ، كما كان حاله دائماً في كل ماكان يأمرهم به .[1]

ويذكر تاريخ الدعوة الإسلامية أن مجتمع المسلمين الأوائل كان مجتمعا عاملا . . نشيطا . . مجتهدا . . متقنا ، في كل مجالات الحياة المختلفة والمتنوعة ، من الصناعة إلى الزراعة ، ومن الحدادة والنجارة ، إلى البناء والتعمير. . إلخ[2] .

ويقول الشيخ سيد سابق إن من طبيعة الإسلام الحركه والنشاط ، لأن الحركة حياة وقوة ، والسكون ضعف وموت ، والإسلام يحب لأهله أن يحيوا كأقوى ماتكون الحياة ، وأن يناضلوا كأشد مايكون النضال ، وأن يكون لهم في كل ميدان جهاد ، وفي كل مجال عمل ، حتي تحقق لهم السيادة والقيادة عن جدارة واستحقاق ، وأسلوب الإسلام في الدعوة إلى العمل أسلوب متميز لا يكاد يضاهيه أو يقاربه أي

---

(١) محمد عبد العليم مرسي : التربية . . وكارثة غزو الكويت ، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩١م .

(٢) عبد العزيز محمد العمري : الحرف والصناعات في الحجاز في عهد الرسول، صلى الله عليه وسلم، (ب دون ناشر)، ١٤٠٩هـ.

أسلوب آخر ، فغاية الحياة في نظر الإسلام هي إحسان العمل وإتقانه ، وإبراز المواهب ، وإبراز القوى الكامنة في النفس الإنسانية .[1]

ويؤكد «سفر» على أهمية العمل بالنسبة للأمة الإسلامية ، ويبين موقف الإسلام من ذلك ، داحضاً ومفندا بعض الأفكار الخاطئة التي راجت عند البعض حول قضية «عمل المسلم» يقول : «إن بعضنا يعتقد بأن الله جعل الكفار في خدمتنا ، لذلك فهم يتولون الصناعة لاستهلاكنا . . !! أما نحن فنتفرغ للعلوم الشرعية ، وكأن معرفة الحرفة والصنعة والإنتاج ليست من العلوم الإسلامية ، ولامن التكاليف الشرعية . . !! ولا من الأنبياء نبي إلا كانت له حرفة ، وهم في موضع الأسوة والقدوة ، ولاندري كيف يفهمون قوله تعالي في بيان نعمه على سيدنا داود : «**وألنا له الحديد**» ، «**وأن اعمل سابغات وقدر في السرد**» ، «**وعلمناه صنعة لبوس لكم**» ، وكيف يقرأون قصة «ذي القرنين» الذي مكن الله له في الأرض بإتيان الأسباب «**آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين ، قال انفخوا ، حتى إذا جعله ناراً قال آتوني أفرغ عليه قطرا**»[2] .

ويؤكد الشيخ القرضاوي على أن الإسلام يريد من المسلمين أن يعملوا في كل مجالات الحياة ، تلك التي تجعل مجتمع المسلمين مكتفيا بعلمائه وأبنائه، في كل المجالات ، من الصناعات العسكرية أو الحربية ، إلى الطب والهندسة ، ومن الزراعة الى البناء والتشييد ، ومن التعدين إلى الحدادة والنجارة . . إلى كل ما تتطلبه حياة المجتمع الإسلامي في العصر الذي يعيش فيه المسلمون ، والذي يحتكون بحضارته ، والتي ينبغي عليهم ألا يكونوا فيها عالة على غيرهم ، أو مجرد مستهلكين

---

(١) السيد سابق : عناصر القوة في الإسلام ، دار الكتاب العربي ، بيروت، ١٤٠٦هـ .

(٢) محمود محمد سفر: دراسة في البناء الحضاري(محنة المسلم مع حضارة عصره)، كتاب الأمة، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، قطر ، العدد (٢٢١)، ١٤٠٩هـ.

غير منتجين.[1]

بينما يؤكد الشيخ الغزالي، رحمه الله، على معنى مهم في كتابه «هموم داعية» ألا وهو انصراف عدد كبير من الناس (المسلمين) عن العمل الجاد في الأراضي الزراعية، وكان ذلك ينبغي أن يكون شغلهم الشاغل، وهمهم الذي لايترك لهم فرصة للراحة أو الدعة[2] وكأني بالشيخ كان يريد أن يفزعهم ليفهموا قضية «انعدام الأمن الغذائي» في عالمنا العربي والإسلامي، بينما هم يستطيعون اتقاء ذلك بشيء واحد فقط هو.. العمل..!!

ولقد ضرب لنا معلمنا الأسمى، صلى الله عليه وسلم، المثل والنموذج حين جاءه رجل فقير.. سائلا شيئا يقتات به، فكان أن وجهه للعمل، وساعده عليه، يقول الشيخ محمد أبو زهرة، رحمه الله: «ولقد جاء رجل الى النبي، صلى الله عليه وسلم، فوجده قويا قادراً، فلم يعطه مالاينفق منه، ولكن اشترى له فأسا، وأعطاه إياها ليحتطب بها، ويأكل من عمل يده، وقد حث النبي، صلى الله عليه وسلم، الأقوياء على العمل، وروى عنه أنه قال: «لأن يحتطب أحدكم بفأسه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه».[3]

وإذا عدنا صفحتين إلى الوراء في هذه الدراسة لوجدنا أن أحد الباحثين قد وجد مجتمع المسلمين في الحجاز في عهد الرسول، صلى الله عليه وسلم، وقد تحول إلى مجتمع جاد، يصل أفراده الليل بالنهار في العمل بجميع أنواعه، مما جعلهم منتجين متقنين مكتفين من جميع مايحتاجون إليه من طعام، إلى كساء، إلى بناء،

---

(١) يوسف القرضاوي: بينات الحل الإسلامي وشبهات العلمانيين والمتغربين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٩هـ

(٢) محمد الغزالي: هموم داعية، دار ثابت للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٠٤هـ.

(٣) محمد أبوزهرة: تنظيم الإسلام للمجتمع، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٣٨٥هـ-١٩٦٥، ص٣٨.

إلى صناعـه أدوات الحرب وأسلحتها ، ويكفي أن نتذكر آلاف المجـاهدين المسلمين الذي كانوا يخرجون من المدينة إلى بـلاد فارس والشام ومصر وشمال إفريقيا وقد كفتهم الأيدي المسلمـة مؤونـة كل ما يحتـاجون إليـه ، وبذلك ارتقى الإنسـان المسلم درجة كبرى في مجال صناعة الحضارة الإسلاميـة الوليدة ، وارتفعت قيمة الإنسان المسلم ، وتغيرت مكانته نحو الأفضل بفضل توجيهات الإسلام العظيمة ، وتربية المصطفي ، صلى الله عليه وسلم .

سادساً :

يا ابن آدم .. إنما أنت أيام .. !!

إن الـدين الإسـلامي العظيـم يعطي أهميـة كبري لعنصر الـوقت في حيـاة الإنسـان المسلم ، فكل دقيقـة في حيـاته ، بـل كل لحظة - في حقيقـة الأمـر - هـو محاسب عليها أمـام الله ، عـز وجل ، يوم القيـامة ، فعن معاذِ بن جبـل رضى الله عنه ، أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، قال : «لن تزولا قـدما عبدٍ يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال : عن عمره فيما أفناه ، وعن شبـابه فيما أبلاه ، وعن ماله . . من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل به» .

وهكـذا ، وكما يقول الشيخ القـرضاوي ، يسـأل الإنسان عن عمـره عامـة ، وعن شبابه خاصة ، والشباب جزء من العمـر ، ولكن له قيمة متميزة ، باعتباره سن الحيوية الدافقة ، والعزيمة الماضيـة ، ومرحلة القوة بين ضعفين : ضعف الطفولة ، وضعف الشيخـوخـة ، كما قال اللـه تعـالى : «اللـه الـذي خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة (الروم/ ٥٤)»(٢٢)

ولبيان أهميـة الوقت ، أقسـم الله تعالى ، في مطـالع سـور عديدة مـن القرآن المكي بأجزاء معينـة منه ، مثل الليل والنهـار ، والفجر ، والضحى ، والعصر ، كما

في قولـه تعالى : (والليـل إذا يغشي ، والنهار إذا تجلى) ، (والفجـر ، وليال عشر) ، (والضحى ، والليل إذا سجى) ، (والعصر ، إن الانسان لفي خسر) .

ومن المعروف لـدى المفسرين ، وفي حسن المسلمين ، أن الله عـز وجل ، إذا أقسم بشيء من خلقـه ، فـذلك ليلفت أنظـارهم إليـه ، وينبههم على جليل منفعتـه وآثاره.(١)

ومن هنا . . من هذا النبع الصافي ، يتأكـد لنا أن الفرد المسلم مسؤول عن كل شيء في حيـاته ، وأن هنـاك تأكيدا في المسـؤولية على عنصر الـوقت بالتحـديد لأنـه سوف يسأل عنه مرتين ، فسؤال عن العمر عـامة ، وسؤال ثانٍ عن الشباب خاصة ، لأن مرحلـة الشباب فيها القـدرة على العطاء والعمل ، وبذل الجهـد والعرق ، كما أن فيها القدرة على الصبر والتحمل والتضحية .

ثم إن المسلم ينبغي أن يتيقن أن اللحظة التي تذهب من عمره لاتعود أبداً بل إن عمـره يأخذ في التنـاقص منذ اللحظـه التي يـولد فيهـا ، وهذه حقيقـة ينبغي ألا تغيب عن البال ، ومن هنـا فإن عليه أن يستفيـد منها قدر استطـاعته ، تصـديقا لما نقل عن الحسن البصري ، في عبـارتـه الواعيـة البليغـة : «مامـن يوم ينشق فجـره إلا وينـادي : ياابن آدم ، أنـا خلق جـديد ، وعلى عملـك شهيد ، فتـزود مني فإني إذا قضيت لا أعود إلى يوم القيامة» .

وقـد كـان السلـف الصـالح ، ومن سـار على نهجهم مـن الخلف ، أحـرص الناس على كسب الوقت وملئـه بالخير ، سواء في ذلك عالمهم وعابدهم ، فقـد كانوا يسابقون الساعات ، ويبادرون اللحظـات ، ضنا منهم بالوقت ، وحرصاً على أن لا

---

(١) يـوسف القـرضـاوي : الـوقت في حيـاة المسلم ، مـؤسسـة الـرسـالـة ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥-ص٦ .

يذهب منهم هدراً . . قال الصحابي الجليل ، عبدالله بن مسعود ، رضى الله عنه : ماندمت على شيء ندمي علي يوم غربت شمسه ، نقص فيه أجلي ، ولم يزد فيه عملي ، وقال الخليفة الصالح عمر بن عبدالعزيز ، رضى الله عنه ، إن الليل والنهار يعملان فيك ، فاعمل فيهما ، وقال الحسن البصري ، رضى الله عنه ، يا ابن آدم ، إنما أنت أيام ، فإذا ذهب يوم ذهب بعضك ، وقال أيضاً : أدركت أقواما كانوا على أوقاتهم أشد منكم حرصاً على دراهمكم ودنانيركم[1] .

إن السلف الصالح كانوا أحرص ما يكونون على أوقاتهم ، لأنهم كانوا أعرف الناس بقيمتها ، وكانوا يقولون : من علامات المقت . . إضاعة الوقت . كما كانوا يقولون : الوقت كالسيف . . إن لم تقطعه قطعك ، وكانوا يحاولون دوما الترقي من حال إلى حال أحسن منها . بحيث يكون يوم أحدهم أفضل من أمسه ، وغده أفضل من يومه .

وكانوا يحرصون كل الحرص على ألا يمر يوم . أو بعض يوم ، أو برهة من الزمان ، وإن قصرت ، دون أن يتزودوا منها بعلم نافع ، أو عمل صالح ، أو مجاهدة للنفس ، أو، إسداء نفع للغير ، وذلك حتى لا تتسرب الأعمار سدى : وحتى لا تضيع هباء ، وتذهب جفاء وهم لا يشعرون ، وكانوا يعتبرون من كفران النعمة ، ومن العقوق للزمن ، أن يمضي يوم لا يستفيدون فيه لأنفسهم ولا للحياة من حولهم ، نموا في المعرفه ، ونموا في الإيمان ، ونموا في عمل الصالحات[2] .

بل لقد كان السلف الصالح يسمون الصلوات الخمس : «يميزان اليوم» ، ويسمون الجمعة «ميزان الأسبوع» ويسمون رمضان «ميزان العام» ، ويسمون الحج :

---

(١) عبد الفتاح أبوغدة : قيمة الزمن عند العلماء ، مكتب المطبوعات الإسلامية ، حلب ، ط٢ ، ١٤٠٧هـ ، ص ص ١٩-٢٠ .

(٢) يوسف القرضاوي ، الوقت في حياة المسلم ، مرجع سابق ، ص١٣ .

«ميزان العمر» ، حرصا منهم على أن يسلم لأحدهم يومه أولا ، فإذا مضى اليوم كان همه في سلامة الأسبوع» ، ثم في سلامة العام ، ثم في سلامة العمر في النهاية ، وذلك هو مسك الختام .(١)

ومن خلال استعراض الكتابات السابقة عن اهتمام السلف الصالح بالوقت وحرصهم عليه ، وانتفاعهم به يتأكد لنا أن التربية الإسلامية العظيمة قد فعلت فعلها في نفوسهم وشخصياتهم ، وأنهم بالفعل أنجزوا الكثير والكثير في كل مجال ، مستفيدين من أوقاتهم ، وكان ذلك عنصرا أساسيا من عناصر بناء الحضارة الإسلامية التليدة التي ما كانت لتحدث لولا وعي الإنسان المسلم بمسؤولياته الجديد ، والتي نهض بها وبأعبائها ، بعد أن تغيرت مكانته على خريطه العالم بسبب الدين الإسلامي العظيم الذي فجر فيه طاقات الخير كلها .

سابعاً :

«وقل ربي زدني علماً» :

إن الله ، جل جلاله ، بدأ بتفضيل العلم وتقديمه قبل القول والعمل ، قال تعالى : «فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك» ، (محمد/ ١٩) . وبين فضل العلم والعلماء في آيات كثيرة من القرآن الكريم ، قال تعالى : «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتو العلم درجات» (المجادله/ ١١) ، وقد أمر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بالاستفادة من العلم ، فقال جل من قائل : «وقل ربي زدني علماً» (ط/ ١١٤) .

والأحاديث النبوية الدالة على فضل العلم ، والأمر بالتعليم والتفقه في الدين

---

(١) المرجع السابق ، ص٨ .

كثيرة ، قال صلى الله عليه وسلم : من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين» (رواه البخاري ومسلم) وقال عليه الصلاة والسلام : لاحسد إلا في اثنتين : رجل أتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها ، ورجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق»(رواه البخاري ومسلم) .

هذا هو موقف الإسلام من العلم والعلماء . . ولقد أمر الله ، سبحانه وتعالى، رسوله، صلى الله عليه وسلم ، بالقراءة منذ نزل عليه جبريل ، عليه السلام ، بالوحي ، وتدافع الصحابه إلى تعلم القرآن وحفظه ، وحفظ أقوال الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، والاقتداء بأفعاله ، ثم أعقب ذلك الانفتاح على مختلف العلوم الإنسانية النافعة .

وقد أسهم علماء الإسلام بجهد كبير في الحضارة العالمية والكشف العلمي ، وكانوا مشاعل ضياء ومنارات إرشاد لرواد النهضة الحديثة في كل العلوم والمعارف ، وهذا مايشهد به العلماء والباحثون المنصفون الذين ينشدون الحقيقة ، فقد تلقوا حضارات من سبقهم من الأمم ، ودرسوها وصححوا مافيها من الأخطاء ، وطوروا الكثير منها ، إن العرب أصحاب نهضة علمية لم تعرفها الإنسانية من قبل ، وإن هذه النهضة فاقت كثيرا ما تركه اليونان أو الرومان . . إن العرب ظلوا ثمانية قرون يشعون على العالم علما وفنا وحضارة وأدبا ، كما أخذوا بيد أوروبا وأخرجوها من الظلمات الى النور .

وهكذا نجد السبق لعلماء المسلمين ومفكريهم (لقد كان لابد من ظهور ابن الهيثم والبيروني وابن سينا والخوارزمي والرازي والغافقي وابن يونس والكندي وابن رشد وابن زهر . . ومن إليهم ، حتى يتسنى ظهور كبلر وكوبرنيق ونيوتن ودالتون وأينشتين . . ومن إليهم) .

لقد حفظ المسلمون القرآن والحديث ، وكانوا هم منشأ علومها المختلفة .

وبعد أن تفقهوا في أمور الدين ، وفهموا أحكامه ، واستنبطوا الكثير من بحوره، بدأوا الإبحار في العلوم والمعارف الاخرى ، فبدأت ترجمة الكتب اليونانية وغيرها في أواخر العصر الأموي ، وترسخت في العصر العباسي ، أيام الرشيد ، وازدادت وتوسعت وعمت مختلف الحضارات واللغات ، وبلغت أوجها أيام المأمون ، وهكذا تيسر للعرب أن يقفوا على مالدى الأمم السابقة من العلوم والمعارف المختلفة ، ثم برزوا في بحثها ودراستها وتصحيح معلوماتها ، بل والإضافه إليها ، والإبداع فيها ، وعندها ظهرت أسماء المئات من العلماء المسلمين الذين كانت كتبهم ومؤلفاتهم وأبحاثهم المختلفه أساسا لكل ما ظهر من تطور وتقدم في علوم الطب والكيمياء والرياضيات والفلك وغيرها من العلوم والفنون .[1]

هذه ولقد كان اهتمام المسلمين بالعلم ، وبمواصلة السير الحثيث فيه ، نابعا من التوجيهات الإلهية فيه ، ومن ممارسات نبي الإسلام ، صلى الله عليه وسلم ، في مجاله ، وفي حثه على الاهتمام بالعلم والعلماء «فلم تعرف البشرية دينا مثل الإسلام عني بالعلم أبلغ العناية وأتمها ، دعوة إليه ، وترغيبا فيه ، وتعظيما لقدره ، وتنويها بأهله ، وحثا علي طلبه وتعليمه وتعلمه ، بيانا لآدابه ، وتوضيحا لآثاره ، وترهيبا عن القعود عنه ، أو الازورار عن أصحابه ، أو المخالفة لهدايته ، أو الازدراء بأهله[2]

ويؤكد العقاد على أن نهضة المسلمين ، من عرب وغيرهم ، راجعة إلى الدين

---

(١) محمد عبد العليم مرسي : البحث العلمي عند المسلمين بين ميسرات الماضي ومعوقات الحاضر، عالم الكتب، ١٤١١هـ-١٩٩١م، من المقدمة .

(٢)يوسف القرضاوي : الرسول والعلم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م، ص٣ .

الإسلامي ، حين يقول «فالفرس ليسوا من السلالة السامية أو العربية ، ولكنهم لم ينجبوا الفلاسفة والعلماء وكبار الشعراء قبل امتزاجهم بالدعوة الروحية - الاسلام - التي انبثقت من قلب الجزيرة العربية .[1]

ويكتب باحث آخر: إن الإسلام لا ينسجم مع نتائج البحث العلمي والعقلي فحسب ، بل جعل متابعة البحوث وطلبها واجبا دينيا يؤجر عليه الإنسان المسلم .[2]

بل إن العقاد رحمه الله يضع العلم في مكان الفرائض لأنه ناتج عن التفكير والتفكير ذاته فريضة إسلامية «إن فريضة التفكير في القرآن الكريم تشمل العقل الإنساني بكل ما احتواه من وظائف (وظائف العقل) فهو يخاطب العقل الوازع ، والعلق المدرك ، والعقل الحكيم ، والعلق الرشيد ، ولا يذكر العقل عرض مقتضبا ، بل يذكره مقصودا نصا على نحو لا نظير له في كتاب من كتب الأديان» .[3]

إن المسلمين الأوائل الذين رباهم الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، حينما وعوا أبعاد الآيات القرآنية التي دعت إلى العلم وطلبه ، مثل : «**اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم**» (العلق/ ١-٥) «**ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد**» (الحج/ ٣) ، « **قُل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا**» (سبأ/ ٤٦) ، «**إنما يخشى الله من عباده العلماء**» (فاطر/ ٢٨) . . أقول حينما وعوا أبعاد تلك الآيات القرآنية الكريمة ، وحينما عملوا بها ، مقتدين برسول البشرية ، صلي الله عليه وسلم ، مستهم شرارة الروح المباركة ، فحولتهم إلى علماء

---

(١) عباس محمود العقاد : أثر العرب في الحضارة الأوربية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٤٦م ، ص٣ .

(٢) أحمد عبد الرحمن السابح : أضواء على الحضارة ، دار اللواء ، الرياض ١٤٠١هـ-١٩٨١م ، ص٣٠

(٣) عباس محمود العقاد ، التفكير فريضة إسلامية ، دار المعارف ، القاهرة .

متفقهين . . خاشعين . . مؤمنين . . فاهمين ، فاندفعوا يبنون حضارة إسلامية رائعة ، في ظرف قرنين اثنين فقط من الزمان هما طرفة عين في أعمار الأمم والشعوب[1]، خاصه وقد شجعهم الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، على ذلك كثيرا حينما دلهم على طريق العلم والعلماء بعدد وافر من أحاديثه النبوية الشريفة ، مثل : «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين» ، (رواه البخاري ومسلم) ، «من سلك طريقا يلتمس فيه علما ، سهل الله به طريقا إلى الجنة ، «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله ، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم ، إلا حفتهم الملائكة ، ونزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وذكرهم الله فيمن عنده» . (رواه مسلم وأصحاب السنن ، وابن حبان في صحيحه والمالكي) ، « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ، وإن العالم ليستغفرله من في السماوات ، ومن في الأرض ، حتي الحيتان في الماء ، وفضل العالم علي العابد كفضل القمر على سائر الكواكب» ، « وإن العلماء ورثة الأنبياء » ، «إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما ، إنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر» (رواه احمد وأبوداود والترمذي وابن ماجة وابن حبان في صحيحه والبيهقي)[2] .

ولقد كان المسلمون واعين لأهمية العلم في بناء حضارتهم الإسلامية الرائعة التي عمت العالم المعروف على أيامهم ، ومن هنا يسّروا لأصحابه ، أي للعلماء ، كل ماكان من شأنه أن ييسر لهم طرق تحصيله ، والبحث فيه ، والاستفادة منه ، وإفادة مجتمع المسلمين من نتائجة ، أذكر أني في بحث لي مختصر عدّدت من هذه الميسرات عشرا هي :

---

(١) محمد عبد العليم مرسي : ميسرات البحث العلمي عند المسلمين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، ص ٨٦ .

(٢) يوسف القرضاوي : الرسول والعلم، مرجع سابق، ص ص ٩-١٠ .

١- الإسلام والعلم .

٢- إتاحة المساجد لطالبي العلم .

٣- إنشاء بيوت الحكمة والمكتبات .

٤- اهتمام الحكام والأمراء بالعلم ورجاله .

٥- مكانة العلماء في المجتمع المسلم .

٦- صبر العلماء ، وقوة إراداتهم ، وتحملهم الشديد .

٧- كثرة الإنفاق على أمور البحث العلمي .

٨- تواضع العلماء المسلمين ، وعمق إيمانهم .

٩- حرص العلماء على نشر العلم ، وإتاحة المعرفة .

١٠- كافؤ الفرص ، وحرية إبداء الرأي العلمي .[١]

وهناك على وجة اليقين ميسّرات أخرى وضعها الإسلام ، ومارسها المسلمون مما دفع بعلماء المسلمين إلى الصفوف الأولى بين علماء العالم جميعاً ، دون أية مبالغات ولكن البحث عنها ، والتنقيب فيها يحتاج لجهود المخلصين من العلماء من أبناء الأمة الإسلامية .

المهم في موضوعنا الذي نحن بصدده هو أن الإنسان المسلم ، في شبه الجزيرة العربية ، وفي فجر الإسلام ، قد وضعت أقدامه - بثبات - على طريق العلم ومن ثم انطلق ، دون تأخر ، يرتاد هذا المجال لأن الأمر به جاء من الله عز وجل ، ومن نبيه الكريم ، ومما لا شك فيه أنه ليس هناك من طريق يغير مكانة الإنسان مثل طريق العلم ، ولذا سمعنا عن مئات ومئات من العلماء الذين خلدهم التاريخ الإسلامي ، وأفادت منهم البشرية بأجمعها .

---

(١) محمد عبد العليم مرسي ، ميسرات البحث العلمي عند المسلمين ، مرجع سابق .

ثامناً :

"ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم" :

إن كل ما مضى من إنجازات قام بها الرعيل الإسلامي الأول الذي تربى على يدي المعلم الأسمى ، صلى الله عليه وسلم ، ما كان ليحدث ، أوماكان ليرى النور ، لولا خاصية معينه تميزوا بها هي خاصية الإيمان ، ويكفي أن نراجع البنود السابقة لنرى أثر الإيمان في حياة الجميع . . المعلم الأسمى ، صلى الله عليه وسلم ، والتلاميذ النجباء . . الصحابة الكرام ، رضوان الله عليهم أجمعين ، فمن إيمان الرسول عليه الصلاة والسلام ، بأن هذه الحياة الدنيا زائلة ، وأن الحياة الحقيقية ستكون في الآخرة ، وهذا هو ماجعله لاتشغله زخارف دنيانا الزائلة ، ولا متعها وأموالها ، ومن هنا عاش عيشة الكفاف ، هو وزوجاته ، رضى الله عنهن جميعا ، ومن إيمانه ويقينه ، صلي الله عليه وسلم ، بأن حدود الله لاينبغي الاقتراب منها ، إلى أنه لاتجوز الشفاعه فيها ، إلى إيمانه ، صلى الله عليه وسلم ، بأن المؤمنين إخوة ، ولذا كان «سلمان منا آل البيت» ، إلى إيمان المرأة المسلمة التي أخطأت والرجل الذي أخطأ ، إيمانهما بأن التوبة الحقة هي أقرب طريق إلى عفو الله ومغفرته ، حتى ولوكانت العقوبة هي الرجم ، إلى تربية الإنسان المسلم على الإيمان بأن " العمل " هو الأساس في بناء الأمة ، وفي صيانة المجتمعات وتقدمها ، ومن هنا «أعطاه الفأس . . ليحتطب» ، إلى الإيمان اليقين بأن الإنسان والحياة «أيام» ، كلما ذهب منها يوم ذهب بعض الإنسان ، ومن هنا حرص السلف الصالح على الوقت ، وفهموا معناه الحقيقي ، إلى الحرص على العلم وتكريم أهله ، لأنهم علموا أن الله ، سبحانه وتعالى ، يرفع الذين أوتوا العلم درجات . .

كل هذا ، وهناك غيره كثير ، يبين أن هناك خيطا رفيعا ، أو هو في حقيقة

الأمر حبل متين ، يربط أفراد هذا المجتمع المسلم ببعضه ، ويوثق من عراه، وهو يتمثل في كلمة واحدة هي . . الإيمان .

ورغم أنها كلمة واحدة إلا أن معانيها هائلة ، وما تفعله في النفوس والعقول قد لا يتصوره الكثيرون ممن لا يحسون بالإيمان ، ولابفعله ، ولنقرأ . . ولنتمعن : «إن شأن الإيمان إذا عمقت جذوره ، وقوى سلطانه علي النفس ، إنه يمد صاحبه بيقين لايهن ، وهمة لاتني ، وأمل لايخبو ، ودافع لايتوقف ، وعزم لايخور ، وهو يملك الدنيا ولكنها لا تملكه ، ويجمع المال ولكنه لا يستعبده، وتحيط به النعمة ولكنها لا تبطره ، وينزل به البلاء ولكن لايقهره ، ولا تزيده الشدائد إلا عزيمة مع عزيمته ، وقوة إلى قوته ، كالذهب الأصيل ، لاتزيده النار إلا نقاء وصفاء» .(١)

ونصل إلى لب القضية التي نحن بصددها ، «قضية الإيمان» وما فعلته في نفوس وشخصيات إنسان شبه الجزيرة العربية ، يقول القرضاوي«من كان يصدق أن مجموعة قليلة العدد ، ضئيلة العدة ، من جزيرة العرب ، لم يكن لهم فلسفة اليونان، ولا مدنية الرومان ، ولا حكمة الهند ، ولا صنعة الصين ، تملك الدنيا بزمام ، وترث ملك الأكاسرة ، وتحطم امبراطورية القياصرة ، وتنشر دينا جديدا وحضارة جديدة في الآفاق ، وفي أقل من ربع قرن من الزمان . . ؟

أليس سر هذا هو الإيمان . . ؟ الإيمان الذي جعل بلال الحبشي قوة يتحدى «سيده» أمية بن خلف ، ويحارب أباجهل بن هشام . . الإيمان الذي جعل القلة تنتصر على الكثرة ، والأميين يغلبون المتحضرين ، ودفع العرب البداة ، ويقينهم في قلوبهم ، ومصاحفهم في يد ، وسيوفهم في أخرى ، ومساكنهم على ظهور خيولهم ،

---

(١) يوسف القرضاوي : الإيمان والحياة، مكتبة وهبة، القاهرة: ١٤١٠هـ-١٩٩٠م، ص٢٧٨ .

يقولون لملوك الفرس وأكاسرة الروم : نحن قوم بعثنا الله لنخرجكم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . . !!»[1]

وقلب الإنسان المؤمن الذي امتلأ بالخير هو قلب ، كما يقول الشيخ الغزالي ، رحمه الله ، قلب انفتحت أقفاله ، وانفسحت أرجاؤه ، وأشرقت معاني الحب في حوانبه ، فهو متعلق بربه ، متتبع لآثاره في كونه ، عاشق للخير ، مبغض للشر ، يمتد مع كل شيء حسن ، وينكمش مع كل شيء قبيح .

وقد خاطب الله ، عز وجل ، المؤمنين من أصحاب محمد ، صلى الله عليه وسلم فقال : «ولكن الله حبب إليكم الإيمان و وزينه في قلوبكم ، وكره إليكم الكفر الفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون ، فضلا من الله ونعمة » (الحجرات/ ٧-٨)[2]

والإيمان بالله الذي نقصده هنا إيمان يبعث في النفس روح الشجاعة والإقدام ، كما أنه يجعل صاحبه غير هياب ولاوجل ، بل هو يقدم على الموت ، طالبا الشهادة في سبيل الله ، إذا دعا داعى الجهاد ، ثم إنه إيمان ، كما يقول الشيخ سيد سابق ، «إيمان يقتضي الاعتقاد بأن الله هو المحيي . والمميت ، «وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله ، كتابا مؤجلاً » (آل عمران/ ١٤٥)، وهو - سبحانه - الرازق ، وأن الرزق لايسوقه حرص حريص ، ولايرده كراهية كاره «ومامن دابة في الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل في كتاب مبين» (هود/ ٣) ، «وكأين من دابة لا تحمل رزقها ، الله يرزقها وإياكم ، وهو السميع العليم» ، (العنكبوت/ ٦٠) ، «الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ، إن

---

(١) المرجع السابق .

(٢) محمد الغزالي : ركائز الإيمان بين العقل والقلب ، دار الاعتصام ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص١٠١ .

الله بكل شيء عليم» (العنكبوت/ ٦٢) [١] ثم إن من ثمار الإيمان بـالله تحرر النفس من سيطـرة الغير ، والطمأنينـة القلبية ، وسكينـة النفس ، **«الـذين آمنـوا وتطمئن قلوبهم بذكـر الله ، ألا بذكر اللـه تطمئن القلوب»** (الرعد/ ٢٨) ، **«هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم»** . [٢]

ثم إن الإيمان يرفع من قوى الإنسان المعنويـة ، ويربطه بمثل أعلى ، وهو الله – سبحـانـه وتعـالى – مصـدر الخير ، والبر ، والكمال . وبهذا يسمـو الإنسـان عن الماديـات ، ويـرتفع عن الشهـوات ، ويستكبر على لذائذ الـدنيـا ، ويـرى أن الخير والسعـادة في النـزاهة والشرف ، وتحقيق القيم الصـالحة ، ومن ثم يتجـه المرء اتجاهـا تلقائياً لخير نفسـه ، ولخير الناس جميعا ، وهذا هـو السر في اقتران العمل الصالح ، بجميع شعبـه وفـروعـه . . بـالإيمان ، إذا أنـه الأصل الـذي تصـدر عنـه ، وتتفـرع عنه[٣] .

ولعل هذا هـو الذي جعل الإنسان في الجزيـرة العربيـة ، بعد أن آمن برسـالة الإسـلام العظمى ، وبعد أن تـربى على يـدي رسول اللـه ، صلى الله عليـه وسلم ، جعل منه إنسـانا مختلفا تمامـا عن الإنسان الذي كـانه من قبل ، ومن هنـا مكّن الله سبحـانه وتعـالى لـه في الأرض : **«وعـد اللـه الذين آمنـوا منكم وعملـوا الصـالحات ليستخلفنهم في الأرض ، كما استخلف الذين مـن قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدِّلنهم من بعد خوفهم أمنا»** . (النور/ ٥٥) .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) محمد الغزالي : ركائز الإيمان بين العقل والقلب، دار الاعتصام، القاهرة، بدون تاريخ، ص١٠١ .

(٣) السيد سـابق : عناصر القوة في الإسلام، دار الكتاب العربي، ديرون ،١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، ص ص ١٥-١٧ .

وبعد .

فهذا الذي جرى في جزيرة العرب للإنسان . . وبالإنسان ، بعد الإسلام ، من رفع لمكانته ومنزلته ، حدث للرجل وللمرأة على السواء ، لأنهما دخلا ذلك الدين العظيم معا ، بل كانت المرأة أول من دخل فيه ، ونقصد بذلك السيدة خديجة ، زوجة النبي ، صلى الله عليه وسلم ، ولكن لأن العرب ، مثلهم مثل غيرهم من الأمم كانت المرأة متدنية المكانة عندهم ، وكان الرجل هو السيد ، وهو الآمر الناهي ، فإن تغيير مكانتها جاء من فوق سبع سموات ، من لدن حكيم خبير ، جل وعلا ، فنزلت في ذلك آيات بينات كثيرة ، وصدرت عن المصطفى ، صلى الله عليه وسلم ، أفعال وأحاديث بلا عدد ، وهذا هو موضوع الفصل التالي .